حياة الغزالي

هو محمد بن محمد بن أحمد كنيتة أبو حامد، وحامد ولده الأول الذي مات وهو صغير[٤]، ويكنى أيضاً حجة الإسلام أبو حامد الطوسي، ولد في قرية غزالة التابعة إلى طوس الفارسية، من مدن خراسان قرب مدينة مشهد اليوم، وقيل أنه ولد في الطابران من أحياء مدينة طوس وذلك عام ٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨ م[٥].

كان والده كثير الدعاء، والتضرع إلى الله تعالى بأن يجعل ولده فقيهاً، وعالماً واعظاً،ولكنه توفي قبل أن يرى ولده ذلك الأصولي الماهر الحاذق،والفقيه الحر، والمتكلم، فكان والده يمتهن غزل الصوف وقيل أنه من المنتسبين إلى الصوفية، ولم يكن له أولاداً سوى محمد وأحمد.

وعاش والده فقيراً معدماً، وقبل وفاته قد أوصى أحد أصدقائه بولديه، وكان صوفياً مثله وفقيراً، ولم يستطيع توفير العيش الطيب لهم سوى تعليمهم القراءة، والكتابة، فأوكل بهما إلى أحد دور العلم،وأمر برعايتهما والإشراف على تعليمهما، باعتبار أنهما يتيما الأب، والأم .

---

(٤) الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر ـ دار رياض الريس ـ ص٤١.

(٥) تهافت الفلاسفة ـ تحقيق.سليمان دنيا ـ دار المعارف في مصر ـ الطبعة الخامسة ص٤٩.

obeikandl.com

بدأ الغزالي دراسة الفقه بعد الابتدائي على يد (أحمد الراذكاني) في طوس، وعندما تقدم في دراسته رحل إلى جرجان، وهو في سن العشرين من العمر، فبقي هناك فترة من الزمن يتلقى العلم، وهناك لجأ إلى الشيخ (أبي نصر الإسماعيلي) وهذا الشيخ هو على الأرجح (إسماعيل بن سعدة) ومن دعاة الإسماعيلية المشهورين الذين انتشرت مدارسهم الفكرية في تلك الفترة الزمنية، وعندما عاد إلى طوس، ومعه تعليقة من الداعي الإسماعيلي قد سرقها منه مجموعة من اللصوص في الطريق، وما يعرف آنذاك بالعيارين، فأخذوا منه ما معه، ولحق بهم ليستعيد ما أخذوا منه ،فرد عليه أحدهم : ويحك إرجع وإلا فأنت هالك، فطلب فقط تعليقته التي أمضى عليها أياماً في استنباط الأفكار، والعبر، ولأنهم لن ينتفعوا منها، فردها له بعد أن سخروا من علمه لتشبثه بها، مما دعاه إلى الاشتغال بها لمدة ثلاث سنوات أي منذ سنة ٤٧٠ هـ إلى سنة ٤٧٣ هـ حتى حفظها، فكانت درساً نفسياً عكف بعده على الدراسة والمثابرة وقال : إن العلم ما وعته الصدور لا ما نقش في السطور، فاتخذ الحفظ قاعدة له وطريقة لازمها طوال حياته، وجعل الذاكرة هي المورد الذي يرده والمصدر الذي يصدر عنه، ولهذا كثرت مصنفاته التي تعدت المئتي مؤلف.في عام ٤٧٣هـ انتقل الغزالي بعد ذلك إلى (نيسابور في بلاد خراسان) وفيها المدرسة النظامية وكانت تحفل هذه المدرسة بالعلم العلماء ومنهم المعلم أبو المعالي الجويني[٦] رئيس المدرسة النظامية (إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله أبو المعالي

(٦) الجويني : هو عبد الملك بن عبد الله " أبو المعالي "فقيه شافعي أشعري توفي سنة ٤٧٨ ينتسب إلى قرية(جوين) قرب شيراز في نواحي (نيسابور) ،هاجر إلى الحجاز وأفتى في مكة والمدينة حيث دعي بإمام .

obeikandl.com

الجويني كان طلبة الجويني يستفيدون منه، وهو يرشدهم، ويقول بعض المعاصرين للغزالي، وهو عبد الغفور بن إسماعيل الفارسي : إن إمام الحرمين شعر بنوع من الغيرة تجاه الغزالي، ولكنه كان يضمر هذه الغيرة، ومع ذلك كان يفخر بتلميذه، ويزهو به أمام الناس، ولئن صح ما رواه ابن إسماعيل الفارسي فان الغزالي ظل وفياً لأستاذه إذ لم ينصرف عنه بعد أن ذاع صيته وشهرته، بل لزمه حتى فرق بينهما الموت بوفاة الجويني في عام ٤٧٨ هـ وكان في استطاعة الغزالي أن يستقل بالتدريس لو أراد، فقد كانت له معرفة كبيرة بالدراسات الدينية وعلم الكلام والفلسفة في ذلك الحين)[٧] وجد الغزالي في هذه المدرسة المعرفة، والعلم، وهو المتعطش لها فأكب على تحصيل علومه بجد، ودأب، وعقل متفتح، وذهن صاف، فدرس فيها العلوم، والأصول، وعلم الكلام، ومبادئ الفلسفة، مما دعا الجويني إلى أن يمنحه الرعاية، والعناية الخاصة، وأوكل إليه مهمة مساعدته في شؤون التدريس .

فكانت إقامته إعدادا نفسياً وعلمياً، فشهد مجالس العلم، والعلماء، وحضر الكثير من المناقشات،والمناظرات، والمحاورات، وشارك فيها، فأحس بالثقة تملأ قلبه، وآمن بقدرته على أنه قادر على خوض معارك الفكر، وزيارة ساحاته الكبيرة، فبرع في الخلاف،والجدل، والمنطق، والحكمة، والفلسفة، فأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد عليهم وإبطال ادعائهم .

---

(٧) دراسات في الفلسفة الإسلامية ـ د.محمود قاسم ـ ص ٣٨

obeikandi.com

وبعد أن توفي الجويني رحل إلى معسكر (نيسابور) قاصداً الوزير نظام الملك الوزير السلجوقي، ومؤسس المدارس النظامية المشهورة ويبدو أن نظام الملك طلبه للاجتماع به بعد أن وصلته أخبار تفوقه واستجابته للعقيدة الأشعرية ووجد ضالته المنشودة واتخذ منه سيفاً يذود به أعداءه وأخذ الغزالي يناقشهم ويناظرهم فتفوق عليهم، مما زاد في شهرته.

وأمره بالذهاب إلى بغداد للتدريس هناك في المدارس النظامية، وكان عمره آنذاك ٣٤ عاماً أي في عام٤٨٤هـ .

ثم طلب إليه نظام الملك أن ينتقل إلى بغداد للتدريس بالمدرسة النظامية، وأنه لما أخذ يلقي دروسه بها أعجب به أهل العراق، والحق أن الغزالي لا يطري نفسه أكثر ما ينبغي ، فقد قال ابن إسماعيل الفارسي إن الكل أعجب بتدريسه ومناظرته، فصار إماماً بعد إمامته لخراسان [٨]

وصل بغداد وكان الخليفة المقتدي بأمر الله، ومن المعروف أنه كان متديناً، وحاملاً لواء الحرب على الإسماعيلية الذين خططوا لعزل سلفه الخليفة (القائم بأمر الله) عن كرسي خلافته في بغداد بعهد القائد (البساسيري) .

ولهذا أكرم الغزالي، ووجد فيه الشخص الذي يمكن أن يتخذ منه سلاحاً لحرب أعدائه الإسماعيليين، وتشويه سمعتهم، ودعوتهم، وفلسفتهم، ولهذا أسرع بمنحه لقب ((إمام)) ومن المعروف أن الغزالي ظل

(٨) الفلسفة الإسلامية ـ محمود قاسم ـ ص ٣٩

obeikandl.com

في بغداد قائماً بمهمته حتى تاريخ سقوط الوزير نظام الملك صريعاً على أيدي الإسماعيليين، وتحدد تلك الفترة للغزالي بنحو ٤ سنوات .

وعندما تسلم المستظهر بالله الخلافة طلب من الغزالي النزول إلى ساحة الحرب الكلامية ضد الإسماعيليين ولم يترك له فرصة الاعتذار وذكر أنه هدده فلم يستطيع إلا الرضوخ، وتلبية أوامر الخليفة فألف كتاب (المستظهري)، أو (فضائح الباطنية).

وعند انتشار الكتاب أدرك الغزالي أنه أصبح مهدداً بالموت من قبل الإسماعيليين، فآثر الفرار من ميدان المعركة تاركاً كل شيء حتى شهرته، ومكانته، ومستقبله، فخرج من بغداد زاهداً بالدنيا، وترك كرسيه لأخيه أحمد في المدرسة النظامية ، لأنه لم يدخل في حسابه التعرض للإسماعيلية، كما لم يرسم، أو يقرر الدخول معهم في نقاش، وذلك لأسباب عديدة أهمها الخوف من خناجرهم، وثانياً عرفاناً بجميلهم عليه في (جرجان) وحدبهم عليه في صغره ولا نعرف الأسباب التي جعلتهم يتغاضون عن فكرة الانتقام منه بعد هجومه عليهم وهو الضعيف الأعزل، في حين كانت خناجرهم تمزق أحشاء الخلفاء والملوك والوزراء، فكيف بمن مثل الغزالي الذي لا حول له ولا قوة[٩]

وهذه الرحلة استغرقت ١٠ سنوات بدأها إلى الديار المقدسة في عام ٤٨٨ هـ وجاور بيت المقدس بجوار الصليبيين، ثم عاد إلى (دمشق) في زاوية تعرف باسمه في الجامع الكبير، وأعتكف فيها لبس الثياب

(٩) الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر ـ دار رياض الريس ـ ص٤٨.

الخشنة والصوف ثم انتقل إلى القدس وبعد ذلك إلى الإسكندرية وتذكر كتب التاريخ أنه أراد الذهاب إلى مراكش للالتحاق بـ (ابن تاشفين)[١٠] ولكنه علم بموته في الإسكندرية مما دعاه إلى الرجوع إلى بغداد ولم يمكث فيها طويلاً، فانتقل إلى (طوس)، وهناك استجاب إلى طلب الوزير فخر الملك بن نظام الملك للتدريس في المدرسة النظامية في (نيسابور)، فقبل مكرهاً، وعندما سقط فخر الدين صريعاً عاد الغزالي إلى (طوس) بعد أن وجد الفرصة سانحة، فسكن في حي الطابران معتزلاً ومنقطعاً ومطلّقاً الدنيا بأسرها، ومقبلاً على الصلاة، والعبادة، والتزود بعلوم الآخرة، فسار إلى (نيسابور) في ذي القعدة سنة ٤٩٩ هـ جاءها، وقد تجرد عما كان عليه أيام تدريسه الأولى من النظر إلى الناس بعين الازدراء والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء، واعتزازاً بما رزقه الله من البسطة في النظر، والخاطر، والعبادة، وطلب الجاه، والعلو في المنزلة، واستمر في إلقاء دروسه حتى عام ٥٠٣ ثم غادرها عائداً إلى بيته وأنشأ بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم، وملجأ للصوفية، وقضى ما بقي من عمره في التأمل، والعبادة حتى وفاته في(١٢) جمادى الثانية عام ٥٠٥ هـ[١١].

هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد، هاجمها هجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة، والبحث العلمي وحجة بحجة، فكان موقفه عظيماً موقف الدين من الفلسفة، كان يؤمن إيماناً بأنه لا يقف على فساد نوع

---

(١٠) كبير سلاطين المرابطين، أسس مدينة مراكش وانتصر على ملوك الأندلس، وخاض الحروب ضد الفونس ملك قشتالة وليون في موقع "الزلاقة"

(١١) الفلسفة الإسلامية - محمود قاسم ص ٤٢

obeikandl.com

من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلامهم في أصل ذلك العلم، فجد واجتهد في دراستها ومعرفة حقيقتها، وأغوارها، ورزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية، وإيضاحها فكسر ذلك السياج، ورفع الاحتكار العلمي، وألف كتاب (مقاصد الفلاسفة) فعرض الفلسفة كأحسن ما يعرضها رجال الفلسفة وفي عمله الثاني بدأ هجومه على الفلسفة، وأخذ ينتقد الفلاسفة، ثم قدم ((تهافت الفلاسفة)) الذي اتسم بقوة التعبير، وسلامة العبارة، وسهولة الألفاظ، كما تهكم ونقد نقداً لاذعاً في أسلوب رائع ليقمع غرور الذين أصيبوا بالنقص، وخضعوا للفلاسفة .

كما أن الغزالي أعاد للشريعة الإسلامية هيبتها في النفوس عندما فهم زمانه، وحاجته، فقد أكرمه الله تعالى بالسعادة الروحية، وألف (إحياء علوم الدين) بعد أن انكشفت له حقائق العلم . ومن روائع الغزالي انتقاده لمن اشتغل بالجزيئات الفقهية والخلافية ونبّه إلى أهمية العلوم كلها من طب، وحساب وصناعات .

وانتقد الزهاد في الدنيا لأنهم زهدوا بالطيبات في الدنيا ، فنعم بها الكافر وإن الله خلقها للمؤمن، فالزهد من أعمال القلب وهذا فهم رائع للزهد .

فهذا هو الغزالي إذ نجد في تفكيره الفلسفي أي المعقول بعض البراهين التي تدل على عبقرية صحيحة على حد قول الدكتور عمر فروج في كتابه (عبقرية العرب في العلم والفلسفة)[١٢].

(١٢) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ـ د .عمر فروخ ـ ص١٤٠

obeikandi.com

مع أنني أفضل أن أدعو أبا حامد الغزالي حجة الإسلام وألا أطبق المقاييس الفلسفية الصرف على مجموع آرائه، فإنني أجد في بعض آرائه مواقف عبقرية صحيحة، فعندما قال (جالينوس) بأن الشمس لا تقبل الانعدام ودليله آنذاك، وزعمه على ذلك أن الأرصاد لم تدل على تبدل حرارتها، وحجمها، وقد اعترض الغزالي من وجود أحدهما أن الأرصاد القديمة ليست إلا على التقريب ثم أن الشمس لعظم حجمها قد تذهب (تخف حرارتها) من غير أن يلاحظ الناس ذلك في مدة قصيرة .

وإذا كان الغزالي قد عاش فقيراً، ويتيماً، واستطاع من خلال هذه المعاناة أن يحصل على هذه العلوم، وتصبح مكانته في الفكر الإسلامي، ومؤلفاته التي أعدها خلال حياته كدليل على قدرته الفكرية ومثابرته على ذلك، في حين يذهب بعض الباحثين أن الغزالي انتابه مرض نفسي يسمى مرض الخوف بدليل لما تعرض له بعد تأليفه كتاب المستظهري رغماً عنه أثناء ولاية الخليفة المستظهر بالله، ولا شك في أن الغزالي وحسبما تطرقنا في الدراسة عن حياته أنه ولد في وقت كانت هناك مجموعة من المتناقضات السياسية، والاجتماعية، والدينية، وتولي العناصر غير العربية زمام السلطة من خلال هذه التناقضات قد تجعلة أكثر حكمة، وأكثر توازناً في حين يؤكد بعض الباحثين أن هذه التناقضات كان لها تأثيرها السيئ على شخصية الغزالي الفكرية وبالتالي لم يكتب لما يعتقد إنما كان سيفاً مسلطاً من قبل فئة على أخرى ويستطرد الباحث عارف تا مر في بحثه عن الغزالي بين الفلسفة والدين فيقول[١٣]:

(١٣) الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر ـ دار رياض الريس ـ ص٥١

obeikandi.com

{ونحن عندما وضعنا بعض الروايات المذكورة عنه على بساط البحث لم نحجم عن إعطاء رأينا فيها بصراحة مفصحين عن الكثير من القضايا المجهولة التي أغفل المؤرخون مناقشتها والإفصاح عن آرائهم بالنسبة لها وهكذا فإن المنهج الذي سرنا عليه في بحثنا يقوم على رسم صورة صحيحة لهذا العالم الكبير، ومن خصائص هذا المنهج عدم الاكتراث وتجنب الخوض في التفاصيل التي لا يصدقها العقل وإتباع التحليل الذي ينقد التاريخ ويرفض الأخذ بالمواضيع والروايات على علاتها دون مقابلة أو مفاضلة أو ترجيع.

نرى لزاماً علينا أن ندرس حالة الغزالي والاضطراب العقلي والشك واليقين أو المرض الذي أصيب به أودى بأمنه واستقراره وجعلة عاجزاً عن التعبير عن آرائه بحرية وموضوعية صراحة، وجعل كل ما كتبه يتأرجح بين الشك، واليقين، وبين الخوف، والتناقضات }

ويستند الكاتب على رأي ابن سينا بقوله (إن الألم إنما يكون بالإدراك، والإدراك يكون للحي الذي تكون النفس ملازمة له، وأما الجسم الذي ليس فيه أثر النفس فإنه لا يتألم، ولا يحس، فالموت الذي هو مفارقة النفس للبدن لا يكون له ألم لأن البدن إنما يتألم، ويحس النفس، وتأثيرها فيه، فإذا صار جسماً لا أثر فيه للنفس، فلا حس، ولا ألم، وإن من يخاف الموت لأجل العقاب، فهو ليس خائفاً من الموت بل خائفاً من العقاب أي خائفاً من ذنوبه، وهذه الذنوب تبقى لها آثار من الموت، ومنعكسات على النفس بعد الموت، و الأحرى بهؤلاء أن يتجنبوا ارتكاب الذنوب)

obeikandl.com

و يقول ابن سينا :

{إن الموت تدبير إلهي حكيم وهو الصواب الذي لا غنى عنه فالخائف من الموت هو الخائف من عدله وحكمته وعطائه على العموم، فإن الذي يخاف من الموت هو الجاهل ذاته وإن الموت هو مفارقة النفس للبدن}[١٤]

ويجزم الكاتب قائلاً (لا أتراجع عن القول بأنه كان مصاباً أيضاً بمرض ضعف الشخصية، أو فقدان الإرادة منذ نشأته).

وهنا لسنا في موقع الدفاع عنه أو التهجم عليه لكن للأمانة العلمية نتحدث، وهذا أيضاً ليس عيباً ولا إثماً أن يعيش الإنسان يتيم الأبوين، وكثير من العباقرة الذين نشؤا لأنهم عانوا من الحرمان فكان بذلك التعويض الزائد في علم النفس .

مما لا ريب فيه أن الغزالي نال في بغداد كل ما يمكن أن يناله عالم، أو فقيه، فبالإضافة إلى العطف، ورعاية الخليفة العباسي كان هناك إجماع من العلماء، ورجال الفكر على تفوقه في مجال العلم، ورجاحة عقله، وفضله على طلاب العلوم، وذكائه، وبراعته في التأليف، والتدريس، والتعبير .

وقد فسر لنا هذا التطور الفكري برغبته الشديدة في الوصول إلى الحقيقة وسط الآراء المتضاربة والفرق المتناحرة، وقد دعته هذه الرغبة إلى معالجة كل مشكلة والفحص عن كل عقيدة، لكي يميز بين

---

(١٤) الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر ـ دارالريس الرياض ـ ص٥٢.

الحق والباطل، وسواءٌ أكان باطنياً أم فيلسوفاً أم صوفياً أو متعبداً أو زنديقا[١٥]

إن حالة الشك منذ ريعان صباه ليقبل على المعرفة دون تقليد لم تكن أمراً مصطنعاً، فالإيمان الحق هو الذي يجعل التوافق مع العقل، ويكون التقليد سبباً في البعد عن الحقيقة فتجده طوراً وراء العقل، وعندما يعجز عن الوصول إليه ويعترف بأن عجزه بالعقل هو عبودية، وبحاجة إلى النقل (الدين) للتفسير، وما تحقق عبر النبوة.[١٦]

(١٥) دراسات في الفلسفة الاسلامية - تأليف د. محمود قاسم - دار المعارف في مصر -ص٤٢.

(١٦) المصدر السابق . ص ٤٢

obeikandl.com